مجلة الاستيعاب
Issn : 2661-7625 Eissn : 2773-3947
المجلد: 05 / العـــدد: 02 / ص 96ـ104

الآراء الإصلاحية والكلامية للمولود الزريبي من خلال شرحه للمرشد المعين الموسوم ب: بدور الأفهام على عقائد ابن عاشر الحبر الهمام

Reform and theological opinions of Al Mouloud AlAzaribi via his explanation of Morchid Al'Mo'een

سعدوني سهيلة[1]

[1] جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)، souhila.sadouni@univ-tlemce.dz

تاريخ الاستلام: 2023/04/07 **تاريخ القبول:** 2023/05/08 **تاريخ النشر:** 2023/05/20

ملخص:

يهدف هذا البحث الوجيز إلى كشف الغطاء عن الآراء الكلامية والإصلاحية لعالم من علماء الجزائر وهو المولود الزريبي البسكري، من خلال كتابه الموسوم بـ"بدور الأفهام" والذي شرح فيه عقائد ابن عاشر، وقد كان يحمل همّا كبيرا ورغبة شديدة في النهوض بأعباء الإصلاح والتربية والتعليم في مسقط رأسه زريبة الواد بولاية بسكرة، والقارئ لشرحه هذا لا يستطيع إلا أن يكون متعاطفا رائفا بحاله وهو يكابد معارضة بني بلدته وتمعّضهم وتبرّمهم من محاولاته الإصلاحية، وهذا ما استدعى كتابة هذا البحث.

كلمات مفتاحية: المولود الزريبي؛ الإصلاح؛ علم الكلام؛ التعليم.

Abstract:

This brief research aims to uncover the theological and reform opinions of one of the Algerian scholars, Al-Mouloud Al-Zaribi, through his book entitled "Boudour Al-Afham" (the grains of the comprehensions) in which he explained the Islamic beliefs cited in poetry by Ibn Asher .This erudite had great concern and a strong desire to carry out the burdens of reform and education in his hometown Zariba al-Wad in the state of Biskra, therefore, the reader cannot stand but be sympathetic and compassionate with his condition as he suffered the opposition of the citizens of his town and their

resentment and dissatisfaction with his reform attempts, and this is what demanded the writing of this research.
Keywords: Almouloud Alzaribi; reform; theology science; teaching.

[1] **المؤلف المرسل**: سعدوني سهلية، souhila.sadouni@univ-tlemce.dz

1. مقدمة:

إنّ المشتغل بالحركة الإصلاحية الجزائرية لا يمكنه إلاّ أن يعترف بوجود تقصير كبير ونقص ظاهر في مجال الدراسات التي عالجت جهود علماء الجزائر في تصحيح مسار الفكر العقدي والوعي الديني في الجزائر، وبالرغم من محاولات حثيثة لنفض الغبار عن التراث العلمي والديني الجزائري قبل وأثناء الاستدمار الفرنسي، إلا أنّ كثيرا من الباحثين يجدون صعوبات وعقبات متتالية في طريق الكشف عن هذا التراث.

من بين العلماء الأجلّاء الجزائريين، العالم الشاعر الفقيه محمد المولود الزريبي البسكري، الذي كان له شأن إصلاحي في منطقة الأوراس ومنطقة الزيبان على الخصوص، والذي لم يحظ بدراسات كثيرة عنه وعن علمه وجهوده بسبب صعوبة –تكاد تكون مستحيلة – الوصول إلى ما تركه من أفكار وآراء وأشعار تحكي واقع تلك الحقبة وتتضمّن نهجا تعليميا فريدا من نوعه، قد يكون معاكسا تماما لتيّار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وطرحا آخر مقابلا لطرح العلامة عبد الحميد بن باديس.

يقدّم هذا المقال الوجيز نبذة يسيرة عن هذا الرجل وعن أهمّ ما كان يشغل تفكيره وهو في طريقه الإصلاحي، وقد راودتنا أسئلة كثيرة لعلّ أبرزها: ما هي أهمّ آراء المولود الزريبي الإصلاحية؟ وفيما تمثّل فكره العقدي؟ وكيف كان منهجه التعليمي في مسقط رأسه زريبة الوادي ببسكرة؟ على أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج إلى تدقيق في كتبه وتحقيق في أقواله الأمر الذي لم نوفق إليه، حيث أن التراث الفكري للمولود الزريبي تمثل في شرحه للمرشد المعين وهو الذي وقفنا عليه في عجالة.

2. لماذا المولود الزريبي؟

هو المولود بن محمد بن عمر الزريبي: شاعر، عالم من فقهاء المالكية، ولد في زريبة الواد ببسكرة، حفظ القرءان الكريم على شيخه *السيد عمار ابن سعيد* ثم تلقى مبادئ العلوم العربية على العالم المصلح *سيدي حامد العبيدي* في الزاوية الحفناوية بقرية إليانة وهي تبعد عن الزريبة بسبعة أميال، ثم التحق بجامع الازهر فأكمل دراسته. ثمّ عاد فاشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد والإصلاح الاجتماعي في مسقط رأسه ثم في الأوراس. وانتقل الى الجزائر العاصمة فتولى تحرير جريدة "الصديق" التي أصدرها *محمد بن بكير* سنة 1920م، والتي تعد من أوائل الصحف الجزائرية في محاربة البدع والدعوة إلى النهوض. كما تولى التدريس في الجامع الأعظم. (عادل نويهض، 1980، صفحة 158) وقد تنقل الزريبي أثناء ذلك في المناطق النائية قبل أن يستقر في العاصمة، وقد نشرت له أشعار في جريدة (كوكب أفريقية) التي كانت تصدر بالعاصمة، ثم ضمنها كتابه (بدور الأفهام) الذي طبعه بتونس. وقد قال ذات مرة إن له (قصائد كثيرة) في موضوع الدعوة إلى العلم والنهي عن البدع. مات في بوفاريك سنة 1925م. (أبو القاسم سعد الله، 2007، صفحة 257)

ذكر عمار الطالبي في آثار ابن باديس المولود الزريبي وقال أنّه قد التجأ إلى حيلة طريفة، حين دوَّن آراءه الإصلاحية في شرحه على عقائد "المرشد المعين" المشهور عند العامة والخاصة، الذي نشره في تونس في حدود 1913م ولما له من تأثير ودراسة الناس له لتتسرب أفكاره إليهم عن طريقه. (عمار طالبي، 1968، صفحة 27)

وكان له زميل أزهري جزائري هو الشيخ *عسول العبيدي* يعارضه في فكرته الإصلاحية مما أدى إلى وقوع مناظرات بينهما أمام الشيخ *علي بن فاجي* وجماعة من طلبة "إليانة" وكان موضوعها "محدثات الأمور في الدين". ولما جاء الشيخ *الطيب العقبي* إلى الجزائر وقعت بينه وبين المولود الزريبي خصومات وشرح وجهة نظره في الجريدة التي كان يحررها "جريدة الصديق" بينما لم يجد العقبي مجالاً ينازل فيه خصمه. (عمار طالبي، 1968، صفحة 27) وللأسف لم أقف على هذه المراسلات ولا على جريدة الصديق ولم أتمكن من الاطلاع على كتاب آخر له بعنوان " الأخلاق".

وذكر محمد الهادي السنوسي في ترجمته للمولود الزريبي أنّه كان قد شرع في تأليف كتاب الأخلاق وأنه قد نشر منه فصولا في جريدة (الصديق) التي كان الزريبي يشرف عليها. ولم يظهر للوجود آنذاك، وربما كانت روح الإصلاح الديني والاجتماعي هي الطاغية على هذا الكتاب، لأن نشاط الزريبي كان حول ذلك. (أبو القاسم سعد الله، 2007، صفحة 197)

3. سبب تأليفه للكتاب:

وسم المولود الزريبي رحمه الله تعالى شرحه بـ: "بدور الأفهام أو شموس الأحلام على عقائد ابن عاشر الهمام". وقد طبع هذا الشرح بالمطبعة التونسية سنة 1334 هـ، ولم يطبع الشرح حتى عرضه على العلماء التونسيين والجزائريين وقد لقي منهم القبول وأجازوه عليه. وهو كما يدل العنوان، يشرح نظم عبد الواحد بن عاشر في العقائد، وفي رأي الزريبي أن النظم لم يحظ بشرح جيد، ولذلك قام هو بهذه المهمة. قال في المقدمة: " لما كان من أجل ما يرخى العنان إليه، ومن أعظم ما تناخ الرحال لديه علم الكلام الذي رق عرفه وراق وعم وجوبه سائر الأقطار والآفاق وكانت عقائد المرشد المعين غير مشروحة شرحا يشفي الغليل و يبسط القاعدة ويقيم الدليل. فكم من مكثر ممل ومن مقل مخل. نسجت عليه فرائد، وغزلت له فوائد، وبسطت اليد الطولى في الرد على بدع أهل هذا الزمان بأدلة قطعية وحجج عقلية ونقلية تبرز الخفي للعيان. وسميته بدور الأفهام أو شموس الأحلام..." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 03)

وقد وقفت على مقدمات المحققين لبعض النسخ التي تشرح النظم ذكروا فيها بعض الشروح ولم يأت واحد منهم على ذكر شرح المولود الزريبي. مع أنّ محقق إرشاد المريدين ذكر شرح التونسي الكافي الذي طبع سنة 1341هـ بمصر أي بعد تقريبا سبع سنوات من صدور بدور الأفهام الذي تم طبعه سنة 1334 هـ بتونس.

4. آراء الزريبي الإصلاحية والكلامية من خلال شرحه لنظم ابن عاشر في العقائد:

1- 1.4 موقفه من بعض العلوم:

أ- علم الكلام

المشتغل بعلم الكلام حسب المولود الزريبي هو ذاك الذي هداه الله فاختاره سبحانه وتعالى لخوض لجج هذا العلم. فعلم الكلام أجل وأعظم علم وجب تعلّمه وتعليمه. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 02)وهو أشرف العلوم لكونه متعلقا بذاته سبحانه وتعالى وذات رسله صلوات الله عليهم وما يتعلق بذلك وهو أصل العلوم الدينية وما سواه فرع عنه، وحكمه الوجوب العيني على كل مكلّف يصل مع علم التوحيد إلى سلامة خاطره من الشكوك والشبه أما حال كونه فرضا كفائيا فهو دفع الشبه والذب عن الدين ويحتاج في ذلك إلى المنطق. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 17)

وخلاصة قوله في علم الكلام أنّه: (المولود الزريبي، 1334، صفحة 02)

- علم يوفّق الله من يشاء من عباده لخوض غماره بهداية له منه سبحانه وتعالى.
- المتصدّر لعلم الكلام لا يكون إلاّ عالما خلصت عقائده من شوائب الشرك والإلحاد.
- عالم الكلام لا يكون متّبعا مقلّدا بل مجتهدا ناظرا مفتّقا للمسائل منافحا عن الدين بالحجج والبراهين.

ب- علم المنطق

يرى الزريبي أنّ دعائم علم الكلام بنيت على أصول المنطق حتى إن من لم يكن له بصيرة تامة في فنّ المنطق لا يحرّر براهين التوحيد وأدلته على وجه التحقيق. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 18)لذلك قال باستحباب تعاطي كتب المنطق والفلسفة كالشمية ومختصر السنوسي وتهذيب السعد لمن كان له قدم راسخ بمذهب أهل السنة، وردّ على من أنكر تعلم المنطق كالسيوطي وابن الصلاح وغيرهما. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 17 23) وقد احتاج علماء الكلام إلى المنطق أشد الحاجة لما انتشر البدع والأهواء وكثر الاختلاف. وما نقله العلماء عن الأئمة في تحريم علم الكلام والمنطق ليس بحق على إطلاقه فقد أجاب المتأخرون عنه المحققين بأجوبة كثيرة وأحسن جواب عند المولود الزريبي جواب السعد في شرح العقائد النسفية. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 92) ويضيف أنّ هناك مسائل كلامية وعقدية لا ينبغي التصريح بها إلا في مقام التعليم لمن هو أهل لذلك.

2.4 آراؤه الكلامية

أ-شكر المنعم

الشكر اصطلاحا: هو "صرف العبد جميع جوارحه فيما خلقت لأجله وهذا المعنى لا يكاد يوجد إلا في خواص الناس والشاكر لربه على الحقيقة هو الذي يحبّ مولاه محبّة خالصة تحمله على أن يستفرغ طاقته في الطاعة حسب الإمكان... فالعبادة الكاملة هي التي ينشأ منها إشراق المحبة الخالصة وعلامة المحبة امتثال الأوامر واجتناب النواهي." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 06)فقد ركّز المولود الزريبي على ما يكون به الشكر فهو تعظيم للمنعم بالعمل في السرّاء والضرّاء وعلى حال الشاكر ربّه الذي قادته المحبّة إلى أن يرتقي في مقامات العبودية لله عزّوجلّ، وهو أي الشكر واجب شرعا لا عقلا خلافا للمعتزلة.

ب- عدم تكفير الفلاسفة القائلين بقدم العالم

يقول أنّ القدم الذي عنوه هو القدم بالزمان وقد صرح ابن سينا في الشفاء في مبحث العلة بما يقتضي حدوث العالم. وقول الفلاسفة بقدم النوع أن آحاد الحوادث لا أول لها بمعنى أنها لا تقف عند حد تنتهي إليه من جانب الماضي، والقول بذلك ليس كفرا ولا يستلزم كفرا (المولود الزريبي، 1334، صفحة 78)يقول المولد الزريبي تعقيبا على شيخه محمد بخيت: " وبهذا تعلم ما في بعض كتب أهل التوحيد من تكفير الفلاسفة فإنه ناشئ من عدم دقة النظر والتأمل..." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 79) فالفلاسفة يعتقدون أنّ الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بقوة اودعها الله فيها والتلازم بينهما عادي وفي كفر هذا المذهب قولان والصحيح عدم كفره وقالت به المعتزلة وهم ليسوا بكفار بل مبتدعين. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 80)

ج-أهل الفترة

يفصّل المولود الزريبي في هذه المسألة تفصيلا شافيا ويرى أنّ فالمكلّف هو البالغ العاقل الذي بلغته الدعوة، والذي لم تبلغه دعوة التوحيد فهو ناج معذور، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة والخلاف مبنيّ على شرطية بلوغ دعوة نبيّ زمانه أو أيّ نبيّ، وقد رجّح المولود الزريبي الأولّ وقال بشرطية بلوغ دعوة نبيّ زمان المكلّف لا أيّ نبيّ، وهذا التحقيق قال به المعلم الأبيّ في شرحه لصحيح مسلم خلافا للنووي. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 21)

3.4 مواقفه الإصلاحية

أ-الفخر بالأشراف وتقليد الشيوخ

يقول المولود الزريبي: "... ولا تغتر بما يتناقله بعض المتفوهين بترهات الكلام وخزعبلاته من المبالغة في الأشراف جدا وإن غيروا وإن بدلوا في المذهب أو فسقوا..." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 09) يشير بهذا القول إلى ما كان منتشرا في عصره من الفخر بالأجداد بطريق الانتساب إلى بيوت شريفة، يقول أيضا: "... ومن هنا تعلم أن بعض المنتسبين لعلم الأنساب الباذلين جهدهم في رفع الأنساب في كون هذا شريف وغير شريف إنما قصدهم بذلك الطمع والتملق برفعة جاهه عندهم..." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 12) فبيّن رحمه الله أنّ تلك العادة التي كانت سارية بكثرة وقتذاك كانت سببا في تفريق الناس إلى من هو رفيع الشأن ومن هو غير ذلك ولا شكّ أنّ هذا خلاف ما جاء به الإسلام في أفضلية الناس بالتقوى والورع والتقرب من الله سبحانه وتعالى.

كذلك أشار في شرحه لعقائد ابن عاشر إلى مسألة اتّباع الشيوخ وتقليدهم في كلّ شيء بل وتقديسهم، في هذا الصدد يقول:" المقتدي أي المتّبع لسنّته وشريعته من المتلقّين لحديثه وأثره بالقبول والترحيب لا من الذين طمست منهم البصائر وخبثت منهم السرائر حتى أنّهم صاروا إذا قيل لهم قال سيدي فلان قالوا على الرأس والعين، وإن قيل لهم قال عليه الصلاة والسلام تهاونوا بذلك وحسبوه هيّنا..." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 11)

ب- حالة الجهل في القطر الجزائري ومعاناة الزريبي:

وصف المولود الزريبي حالة طلب العلم والتعلمّ وصفا دقيقا ساخطا على الحالة التي آلت إليها الجزائر، يقول: " فمن قرأ ميارة الصغرى فقها والأجرومية وشروحها نحوا أصبح مدرسا ولا يبالي بجهله الذي هو فيه ويخوض في الفنون الصعبة عليه...ويدعي بدعاوي باطلة... وبعضهم يكتفي بحفظ متون الفقه دون شروحها فيبقى أحدهم نحو العشرين سنة أو أكثر يحفظ عن الفقهاء القاصرين مثله فيتخرج عديم الذوق والملكة... وكان عليهم التغرب لنيل العلوم ولو تركوا مالهم وأهليهم فإن حياتهم الأدبية مقدمة على حياتهم المادية لو كانوا يعلمون.." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 45)

وكان في كل مرة يذكر الشيء الكثير من معاناة العلماء الأفاضل ومعالجتهم لمعارضة أصحاب الطرقية ومن اتّبعهم ودافع عنهم، يقول متحسّرا: " وفي أثناء كتابة هذا المقام وقعت لنا عوائق كثيرة وإحن غزيرة في هاته البلدة التعسة التي لولا قضاء الله والقدر لما بقيت بها طرفة عين وهي زريبة الوادي فإن أهلها أشد جهلا ممن سواهم وأقرب إلى المنكرات ممن عداهم.....وهذا كله بعد رجوعي من مصر وقراءتي بالأزهر فصرت أتنهد عليها تنهد الثكلى وحملني العود الشوق إلى الأهل والوطن... وقد تحسرت ندما..."

وقد كان شديدا في نعت الناس بالجهل والحمق بسبب ابتداعهم بدعا شتى لاسيما في حقّ أناس "يزعمون علوما يدعون الناس إليها وهم أضل من توما الحكيم... ومنبع هذه البدع بعض الزوايا.. بلغ الأمر أن اعتقد التلاميذ في مستشيخيهم اعتقاد النصارى في المسيح.. فبقيت لأذب عن الذب فذلك واجب ووافقني بعض الأفاضل فصرنا بين مخرق ومرقع.. ومن المعلوم ندرة المرقع وكثرة المخرق..." (المولود الزريبي، 1334، صفحة 60 61)

وفي نفس السياق بيّن كيف أنّ هؤلاء الأتباع أبعد ما يكون عليه السالك الحقيقي السائر إلى الله، و هو من صرف همته لله وقطعها عما سواه ويعمل على تصفية نفسه من الكدرات ويحثها على فعل العبادات والطاعات... وليس من قام في صلاته يصيح ويرقص وربما سبّ الدين وأتى بأنواع الكفر ثم يتعذّر بسلب عقله وهو عذر أقبح من ذنب... بل إنّهم من جهلهم شابهوا

الباطنية فصاروا يفسرون الآيات تفسيرا يناسب مذهبهم واصطلاحاتهم وما ذلك إلا إلحاد وضلال. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 31 32)

كما تحدث عن اتخاذ السبحة ووضعها حول الرقبة او كالسوار في اليد إظهارا للعلم والتدين والوقار أو يسبح بها وكأنه يذكر وهو يخوض في القيل والقال والله يقول ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.. مما يدل على أنّ شروط التصوف لم تكن متحققة في زمان المولود الزريبي لتفشي الجهل و انتشار الرياء. (المولود الزريبي، 1334، صفحة 167)

5.خاتمة:

أخيرا لا يمكن القول بأنّ الحديث عن المولود الزريبي في هذه الوريقات قد أتى على ذكر جميع مميّزات الطرح الفكري والإصلاحي لهذا الرجل، بل هي محاولة خاطفة لتسليط الضوء على واحد من علماء الجزائر، والمطلّع على بدور الأفهام ينكشف له الكثير عن المولود الزريبي، لاسيما قوّة التحليل والتحقيق، وموسوعيته في العلوم كالمنطق والفلسفة ومقارنة الأديان، وحفظه المتقن لأقوال العلماء والمتكلّمين؛ وكما تمّ الاعتناء بالحركة الإصلاحية التي ارتبطت بجمعية العلماء المسلمين، ينبغي كذلك الاعتناء بالمصلحين الذي اتّبعوا نهجا آخر وكلّه في سبيل النهوض بالبلاد والعباد.

6. قائمة المراجع:

الزريبي، المولود، 1334هـ ، بدور الأفهام على عقائد ابن عاشر الهمام، المطبعة التونسية.

سعد الله، أبو القاسم، 2007م ، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع– الجزائر

نويهض، عادل، 1980م ، معجم أعلام الجزائر مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان.

الطالبي، عمار، 1968م ، آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.